

## مشروعُ مقالة

جلست إلى مكتبي وأمسكت بالقلم واستعرضت ما مر علي أثناء الأسبوع لأختار منه موضوعاً أكتب فيه، فخطر لي:

١

أن أكتب في المساجلات الأدبية التي دارت بين شيخ العروبة والأستاذ مسعود في (الطرطوشي ولأردة)، وبين الدكتور زكي مبارك والأستاذ عبد الله عفيفي في كتاب (زهرات منثورة)، وبين الدكتور طه حسين والأستاذ العقاد في (اللاتينيين والسكسونيين)، وقلت: إن هذا موضوع طريف جدير أن يكتب فيه الكاتب ويعرض فيه لنوعي النقد اللذين ظهرا في كتابة هؤلاء الأدباء؛ فأحد النوعين قاس عنيف، حتى يخيل إلي أن أصحابه لم يبق لهم إلا أن يتسابوا بالأباء، أو يتضاربوا بالأكف، أو يتبارزوا بالسيف! والآخر عفيف خفيف فيه لذع، ولكن بالإيماء والإشارة، وفيه مهاجمة عنيفة، ولكن للفكرة لا لقائلها؛ ويخيل إلي أنهما إذا تقابلا تعانقا، ومهما أطلا فلن يتباغضا. وليس في أسلوبها إبدال وفخر وإعجاب وعجب، وليس فيه إسفاف وتناذب بالألقاب، وإدخال للعمامة والقبعة في وسط المعمة، يدعو أحدهما الآخر إلى التلمذة له، ويلقي كلاهما درساً في النحو على أخيه.

وقلت: من الحق أن تصرخ في وجه هؤلاء، وأن تعلن أن نقدمك يعجبك موضوعاً ولا يعجبك شكلاً، وأن الذوق إذا رقى اكتفى في الخصام بلمحة، وأن الأديب يعجبه التعريض والتلميح، ويشتمئز من الهجوم المكشوف والتصريح، وأن العامة إذا تسابوا أقذعوا، وأن أولي الذوق إذا تخاصموا كان لهم في الكناية ومراتبها، والإيماء ودرجاته، والتعريض

ومقاماته، مندوحة من الأسلوب العريان والصراحة المخزية، وأن الحقيقة الواحدة يمكن أن تقال على ألف وجه، يتخير الأديب أحسنها، على حين لا يعرف العامي إلا وجهًا واحدًا يتلوه الضرب، وأن في أعماق شيوخ الأدب حقًا للناشئة من المتعلمين الذين يضربون على قلوبهم ويسيروا على منوالهم، وإن هؤلاء الناشئة ليجدون في هذه الصحف والمجلات مدرسة تتقنهم وتغذيهم. ثم هم بعد قادة الأدب وهداة الأمة؛ فلو أننا علمنا النشء هذا النقد الذي لا يراعي صداقة ولا يابيه لوفاء كان علينا وزرهم ووزر الأجيال بعدهم، وكانت مدرستنا التي ننشئها قاسية البرامج فاسدة الطريقة.

وقلت: إن هذه الطريقة لا تخدم الحق كما يزعم أصحابها، فلسنا نطلب منهم أن يسكتوا على باطل، وأن يغمضوا عن خطأ؛ بل نحمد منهم جدّهم في خدمة الحق، وسهرهم في كشف الصواب، ولكنهم يسيئون إلى الحق إذا ظنوا أنه لا يؤدّي إلا بهُجْر، ولا يكشف إلا بسباب. والحق إذا عرض في أدب كان أجمل وأجدى على رُوّاده، وإذا عرض في سفه حمل المُعانَد أن يصر على عناده وحمل الخجول أن يكتم آراءه في نفسه حتى لا يُنْهَسَ عَرْضُهُ ولا تُبْتَدَلَ كرامته، فقل التآليف وضعف الإنتاج.

جال كل هذا في نفسي، ولكنني خفت أن أكتب مقالتي في هذا الموضوع، وقلت: إنك إن فعلت هاجوا بك، وتركوا خصومتهم لخصومتك، وتصادقوا لعداوتك، وقالوا: أتلقي علينا درسًا في الأدب ونحن أساتذة الأدب؟ ومن أنت؟ وما شأنك؟ وجلسوا مني مجلس الملكين يسألون ويسفهون. وأنت ما أغناك عن هذا الموقف وما أبعدك من هذا المأزق! فتركت هذا الموضوع، وعدلت عن المشروع.

ففيم أكتب إداً؟

## ٢

كنت في الترام عصر يوم من هذا الأسبوع، فصاح بائع الجرائد: المقطم! البلاغ! فلم ألتفت إليه لأنني كنت قرأتهم، فلم يصدق أنني سمعت، فصاح صيحة أنكر من الأولى، فكان موقفي منه موقفي، فأمعن في الصراخ وأمعنت في البرود؛ فما وسعه إلا أن صعد الترام، ومسني بالمقطم والبلاغ، فاضطرتت إلى أن أقول: إني قرأتها ليصدق أنني سمعت وفهمت.

وقلت: إن هذا الموضوع للكتابة طريف، أدعو فيه إلى دقة الحس ورقة الشعور وظرف المعاملة؛ فإن ذلك لو كان لأغنانا من كثير مما نلاقي من عناء وجفاء؛ وما معاملاتنا إلا كالألة بلا زيت: تسير ولكن تصدّع.

على أنني قلت: إن هذا الموضوع من جنس الأول، فلو أن أساتذة الأدب رُقُوا في نقدهم، لرق بائعوا الجرائد في عرضهم، فأعرضت عن هذه إذا أعرضت عن تلك.

٣

وجلست في مجلس يجمع طائفة مختارة من الأدباء، فُعِرِضَتْ بعض القصائد والمقالات، فما من قصيدة أو مقالة إلا استحسناها قوم واستهجنها آخرون؛ ورأيت من استحسّن لم يستطع أن يُقْنِع من استهجن، ولا من استهجن قد استطاع أن يقيم الدليل على من استحسّن؛ ورأيتهم إذا تناقشوا في المعقولات أطالوا حججهم وسددوا براهينهم، وذكروا لقولهم الأسباب والنتائج، وهم أعجز ما يكونون عن ذلك في الفنون والآداب.

فقلت: هذا الموضوع جيد، أليس من الممكن أن يوضع للذوق منطق كما وضع أرسطو للعقل منطقاً، فلتكتب في «الذوق الفني»، ولتحاول أن تبين أسباب الخلاف ووجه الصواب ووجه الخطأ، وترسم سلماً للراقي في الذوق تعرف به من أخطأ ومن أصاب، وتبين به علة الخطأ في المخطئ والإصابة للمصيب، وكيف تحكم على ذوق بأنه أرقى من ذوق، كما تحكم على عقل بأنه أرقى من عقل.

ولكني رأيت الموضوع عميقاً يحتاج أن أفرغ له، وأهجم عليه ابتداءً من غير أن أشتت فكري في موضوعات مختلفة، فأرجأته إلى حين.

وقلت: ما الذي يمنع أن أجعل مشروع المقالة مقالة؟ فليكن!